

الدور الوظيفي للتراث الملبسي في ترسيخ الهوية.

The functional role of clothing heritage in establishing identity.

قدور بن عطية مولود¹

¹ جامعة عبد الحميد بن باديس - مستغانم

مخبر الخلدونية الجديدة والمؤسسات العمرانية والسلطة

Mouloud.univ.1785@Gmail.com

المعلومات المقال	الملخص: (لا يتجاوز 10 اسطر)
تاريخ الارسال: 2020/...../.....	شكّل التراث بكل صنوفه وأشكاله محور اهتمام باحثين كثير، نظرا لأهميته التي تظهر من خلال اسهامه في تثبيت وترسيخ ثوابت المجتمع وقيمه ومبادئه، وعليه فإن هذا البحث يشكل مرتعا للخوض في العديد من الإشكالات، والتي في مقدمتها البحث في مفهوم التراث وعلاقته بعينته من المتغيرات.
تاريخ القبول: 2020/...../.....	ومن صنوف التراث المطروحة للنقاش نذكر التراث الملبسي، هذا الأخير يشكل عنصرا لاماديا من عناصر التراث، يمثل تركيبة ثقافية خلافتية في الغالب من مجتمع لآخر، ومن سياق زمني لآخر.
الكلمات المفتاحية	تعد مسألة الهوية من المتغيرات التي نبحث في علاقتها مع التراث، إننا لا نقصد بها نسقا معيننا نظرا لكونها مترامية الأطراف في مفهومها، لكن نقصد أغلب الأنساق ذات العلاقة بتشكيل الهوية، لذلك حينما نبحث في علاقة التراث بترسيخ الهوية لا نستثني من التراث أي عنصر، نظرا لكونه يضم شقا ماديا وآخر غير مادي، إن التساؤل الذي يتأشك منه البحث الحالي هو "كيف يساهم التراث في ترسيخ هوية المجتمع؟
التراث. ✓ الهوية. ✓ الدور الوظيفي. ✓	
Article info	Abstract : (not more than 10 Lines)
Received Accepted	Heritage in all its forms has been of interest to many researchers, due to its importance that appears in the values and principles of society. This research represents a space to delve into many problems, including the relationship of heritage to a sample of variables.

Among the types of heritage, we mention the clothing heritage, as it constitutes an intangible element of the heritage elements, representing a cultural composition that often differs from one society to another and from one time context to another.

One of the variables that we are discussing in its relationship with heritage is the issue of identity. We do not mean by it a specific format because it is ramified, but we mean most of the formats that form identity. Therefore, when we discuss the relationship between heritage and identity, we do not exclude any element from heritage, whether material or immaterial. The question on which the current research is based is: "How does heritage contribute to establishing the identity of society?"

Keywords:

- ✓ heritage
- ✓ identity
- ✓ functional role

المؤلف المرسل: د. قدور بن عطية مولود.

1. مقدمة

من منظور عام يعد اللباس عنصرا ملازما للإنسان، فهو إذا شئنا ضرورة اجتماعية لا يمكن لأي فرد من المجتمع التخلي عنها، كما هو في السياق ذاته حاجة ثقافية يمارس الإنسان بناءً عليها وجوده كفرد مستقل بتصوراته وميوله الثقافية، تأسيسا على ذلك فإن اللباس يتمخض عن بنية ثقافية محددة وخاصة، كما يجسد أبعادا أخرى خلافية ذات علاقة في المقام الأول بالتراث بكل تفرعاته ثم ثانيا للهوية الوطنية ومتطلباتها.

على ذكر التراث، فإنه يشكل على اعتبار أنه متشعب من حيث تكويناته البنوية عصب أي مجتمع أو دولة، ذلك من حيث أنه يضم نسقا متزاميا من الأشكال والعناصر تُطرح في سياق مظهرين رئيسيين، الأول مادي يختص بصنوف متميزة كالنوع المعماري أو المأكولات الشائعة وثقافة اللباس تقليديا كان أو عصريا والتحف وكل ما هو مادي، ومظهر آخر خلافي لا مادي يختص بالتراث الشفهي كالشعر والأقوال المأثورة والقصص أو الأساطير وغيرها.

في إطار الحديث عن التراث والتراث الملبسي، تجدر الإشارة إلى مكانته ودوره الوظيفي المتمثل في التأثير لشواهد المجتمع المتعلقة بالهوية ومقوماتها ومبادئها، من خلال حفظها وترسيخها ضمن المخيال الاجتماعي، نظرا لأن كل مجتمع يفرد بمظهر يعكس هندسته الهوياتية على اختلاف مكوناتها، فالهوية إذا تعلق الأمر بأية مجتمع تتمظهر في بعدها التاريخي والحضاري والعقائدي والثقافي على العموم وعناصر أخرى تأتي إلى تفصيلها لاحقا، وعليه فإن للتراث دور وظيفي بإمتياز يعكس هوية المجتمع.

لا شك فيه أن التراث على اختلاف تجسيدات وصنوفه المادية وغير ذلك، ينهض على مكانة بالغة الأهمية داخل وخارج أي مجتمع كان، لما يختص به من وظائف وأدوار في حفظ الهوية على اختلاف أشكالها وتنوع مصادرها، وتأسيسا على ذلك تظهر الإرهاصات الأولى للإشكالية التي بإمكانها أن تتمخض عن الطرح الحالي حول العلاقة تراث ملبسي-هوية، وعليه فضمن هذا الإطار هناك تساؤل مشروع يطرح من شأنه اكتشاف مكانة التراث في علاقته بالهوية داخل المجتمع:

كيف يمكن فهم الدور الوظيفي للتراث الملبسي في ترسيخ المعالم الهوياتية للمجتمع؟

2. أهداف البحث

يحاول البحث الحالي تحقيق أهداف محددة مسبقا:

- في المقام الأول وضع كل من مفهوم التراث والتراث الملبسي والهوية في السياق المفاهيمي الخاص.

- أما في المقام الثاني فكشف التأثير الحاصل بين التراث الملبسي ومسألة الهوية.
- وفي الأخير التوصل إلى معرفة الكيفية التي يساهم بها التراث بصنفة الملبسي في تعزيز العناصر الهوياتية للمجتمع.

3. أهمية البحث

تظهر أهمية هذا البحث في المقام فيما يلي:

- محاولة الكشف عن العلاقة الماثلة بين التراث بمختلف عناصره ومسألة الهوية.
- دراسة اللباس بوصفه مدخل للهوية، بمعنى النظر إلى اللباس من حيث استعمالاته ورمزيته كفاصل بين نسق المعتقدات والجماعات والجغرافيا، ثم بين الأطار الجندري رجال/نساء، فضلا إلى ما قد يرتج عن ذلك من دلالات تراتبية.
- التأسيس لمعرفة سوسولوجية خالصة، ذلك لأن هذا الطرح يتم وفق منظور وتصورات سوسولوجية بحتة.

4. في مفهوم التراث

إذا تعلق الأمر بمعاجم اللغة العربية وفي الأدب العلمي العربي فإن التراث فهو يشير إلى ما ورثناه عن الأجداد وأصلها من وراث كما لدى ابن منظور في لسان العرب المحيط، ورثه ماله ومجده، على اعتبار أن كلمة تراث تشمل ما تركه الأوائل من مؤلفات لغوية وفروعها والعلوم منها الطبية والفلكية والصناعية وغيرها وأبنية وقلاعها وفنون من رسم وموسيقى وغناء ورقص وغيرها وكلها تشملها كلمة تراث، وكان لا بد هنا من تحديد كلمة خاصة مرادفة للفولكلور وفرز عن التراث الحضاري أو التراث القومي ووضعت تحديدا لكلمة التراث الشعبي فأبينا نجد فولكلور فهو إذا تراث شعبي والعكس صحيح.

ليس هناك تعريف خاص بالتراث، لكن هناك عدة تعريفات طرحها علماء ومختصون في مجال التراث، خاصة التعريف الذي قدمه الباحث "قيليس" بوصفه أحد علماء الآثار والتراث حيث يقول "أن التراث عبارة عن استمرارية ثقافية على نطاق واسع في مجالي الزمان والمكان، تتحدد على أساس التشكيلات المستمرة في الثقافة الكلية، وهي تشمل فترة زمنية طويلة نسبيا وحيزا مكانيا متفاوتا نوعيا ولكنه متميز بيئيا، بل إن العالم الأمريكي هيرسكو فيتس عالم الفولكلور الشهير يرى أن التراث مرادف للثقافة، أي أنه جزء مهم من ثقافة الشعوب وليس منفصلا عنه."¹

في سياق البحث عن تعريف للتراث، صاغ ماك جريجور تعريفا يشير على متنه أن التراث هو "من الخصائص البشرية ذات الجذور العميقة التي تتناقل من جيل إلى آخر"، في حين يرى جوجنباؤه "اسلوب متميز من أساليب الحياة، كما ينعكس في مختلف جوانب الثقافة وربما يمتد خلال فترة زمنية معينة وتظهر عليه التغييرات الثقافية الداخلية العادية ولكنه يتميز طوال تلك الفترة بوحدة أساسية مستمرة."²

في تصور آخر يعرف التراث على أنه "مجموعة كاملة من التقاليد الموروثة، والآثار، والثقافة، وما ينبثق عنها من الأنشطة المعاصرة، والمضامين، والسلوكيات، ويمثل التراث بشقيه الملموس وغير الملموس جزءا أساسيا من الحاضر المعاش، والمستقبل الذي سيتم بناؤه، حيث ينتقل التراث من جيل إلى جيل آخر."³ وهو الأمر ذاته الذي تشير إليه قراءات أخرى فتري أن "التراث معنى شامل لكل ما هو موروث من ثقافات تشتمل على قيم وتقاليد وروى، وهو لا ينتمي للماضي فقط، بل امتداد ثقافي يعايش العصر وينفذ في حياة المعاصرين، فيكون له أثر في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية والروحية، والتعامل مع البيئة المحيطة عمرانيا."⁴

إذا كان التراث يلامس نسق التقاليد الموروثة وجملة الأثار المطروحة فضلا عن الأنساق الثقافية التي يتفاعل على اثرها المجتمع، فهذا لا يعني أنه لا يتجاوز هذا الحد، بناء على ذلك تجدر الإشارة أن التراث يعد "ذاكرة حافظة تمثل حلقة الوصل بين الأجيال، وبه تنفرد جماعة عن أخرى من حيث لغتها ومعتقداتها أو قيمها وعاداتها، وكل ما يكوّن خصوصيتها الثقافية التي تميزها عن غيرها، وهو للهوية الجذر الضارب والأساس الراسخ".⁵

في السياق ذاته المتصل بمفهوم التراث، ويرى محمد عابد الجابري أن العرب القدماء لم يوظفوا مصطلح التراث بكل حملته المعجمية في زيتها الحديث، كما أن هذه الدلالة لمستعمل إلا من خلال الفكر العربي في شقه الحديث والمعاصر، أما إذا تعلق الأمر بلطفه الإسلامي حيث إهتم الفقهاء بكيفية توزيع تركة الميت على الورثة وفق ما هو مقرر في باب الفرائض، فإن الكلمة الشائعة أكثر والمتداولة لدى أغلب الفقهاء هي كلمة "ميراث" في حين لفظ التراث لا نكاد نجد له لأي أثر في خطابهم، بينما في الحقول المعرفية سواء العربية أو الإسلامية الأخرى، مثل الأدب وعلم الكلام والفلسفة، فإن كلمة تراث لا تحظى بأي وضع خاص.

1.4. أشكال التراث

التراث الطبيعي

تكمن أهمية التراث الطبيعي من حيث كونه يضمّ التكوينات الفسيولوجية والجيولوجية وعلى الأخص الأماكن التي تحوي أحياء مهددة بالانقراض، سواء كانت حيوانية أم نباتية، والتي تعدّ ذات قيمة عالية من وجهة نظر العلم والمهتمين بالتراث، "ويضمّ أيضًا السمات الطبيعية التي تختص بأي تكوين فيزيائي أو بيولوجي، والتي تنفرد بقيمة واضحة من ناحية العلم أو الجمال، كما أنّ المواقع الطبيعية التي لا دخل للإنسان في تشكيلها هي ضمن هذا التراث".⁶

التراث الشعبي

يتشكل التراث الشعبي من الحكايات الشعبية كالأشعار والقصائد المغناة والقصص الشعبية، وخاصة القصص البطولية والأساطير الخيالية، "كما يضمّ هذا النوع من التراث الفنون باختلافها والرقص وأنواع الحرف المختلفة، والأغاني والأمثال المتداولة والألغاز وقصص الأطفال فضلا عن المفاهيم الخرافية التي لا تمت للحقيقة بأية صلة كانت".⁷ أضف الى ذلك جملة الاحتفالات والأعياد الدينية التي تتميز في كل حضارة عن غيرها من الحضارات والثقافات الأخرى، ومن أشكاله نذكر:

● القصص الشعبية؛

الحكايات الشعبية هي قصص تقليدية عن عامة الناس، تعتبر أساس التراث الشعبي، من أشهر الحكايات الشعبية التي تندرج ضمن القصص الشعبي نذكر "الفيل الأبيض، وهي قصة شعبية تعود إلى آسيا، تروي المعاملة اللطيفة لفيل أبيض، ثم قصة الفتاة والديبة الثلاثة وهي قصة شعبية ذات أصول بريطانية، تروي قصة فتاة دخلت منزلا لثلاثة ديبية، إضافة الى النملة والجنّاد باعتبارها قصة عن الجنّاد الذي ظل يلعب طوال الصيف لكنه لم يستعد لفصل الشتاء، مع النملة التي كانت مستعدة جيّداً.

● الحكايات الخرافية؛

وهي الحكايات التي تتضمن عناصر من القصص الخيالية، انتشر هذا النوع من التراث في كل من ألمانيا والدنمارك، ومن أشهر الحكايات الخرافية هي سندريلا، بوصفها من أشهر الحكايات الأسطورية حول العالم، تروي "قصة عن خادمة تصبح أميرة بفضل القليل من السحر والحب. ظهرت هذه القصة في فرنسا، ثم انتشرت في العالم بمختلف الإصدارات." ⁹ ثم قصة السمكة السحرية ذات الرأس الذهبي، وهي من القصص التي ظهرت في الشرق الأوسط تروي "قصة بطل يبحث عن علاج للملك من السمكة السحرية ذات الرأس الذهبي، إضافة إلى حورية البحر الصغيرة، باعتبارها من القصص التي ظهرت في الدنمارك تروي قصة حورية بحر تخلت عن زعانفها ثم عن حياتها من أجل الحب، وانتهت بقصة رابانزل، بوصفها أيضا من القصص التي ظهرت في ألمانيا تروي قصة طفلة مخطوفة نشأت في برج عالٍ وتتميز بشعرها الطويل السحري الذي يُمكنها من رفع الآخرين إلى داخل وخارج البرج." ¹⁰

● الرقص الشعبي؛

يشير إلى الثقافة الخاصة بمجتمع معين، حيث تؤدي الرقصات الشعبية التقليدية في المهرجانات الثقافية الخاصة بكل مجتمع، ويمكن تأديتها إضافة إلى ذلك في التجمعات والمناسبات الخاصة.

● الفنون اليدوية الشعبية؛

إن التصور الذي بإمكاننا أن نخصه بالفنون اليدوية الشعبية باعتبارها نوعا من التراث الشعبي هو كونها فنونا ابتكرها أشخاص عاديون انطلاقا من تقاليدهم ومعتقداتهم الخاصة، تم تناقلها من جيل إلى آخر. ¹¹ ومن أمثلتها الفخار والمصنوعات الجلدية... الخ.

● الأساطير؛

فهي تصف الظواهر اليومية في ثقافات مختلفة، لكن بشخصيات وأبطال من الأساطير، حيث تجسد هذه القصص الآلهة اليونانية وحكايات فرنسية وأمريكية، تقوم هذه الشخصيات بأشياء خارقة للطبيعة، من أشهر القصص الأسطورية هي قصة بروميثيوس يسرق النار، وهي من الأساطير اليونانية القديمة التي توضح كيف سرق المخادع تيتان بروميثيوس النار من الآلهة من أجل البشرية، ثم قصة جون هنري بوصفها أسطورة أمريكية طويلة عن جون هنري الذي كان عبداً لكن تم تحريره. ¹²

التراث الثقافي

يضم التراث الثقافي جملة المعالم الأثرية على شاكله أعمال النحت والإعمار والطلاء الأثرية أو الهياكل والمباني الهندسية، فضلا عن مساكن الكهوف التي سكنها الإنسان الأول، وأي معلم يحضّر بقيمة بارزة من وجهة نظر العلوم، أو المواقع الطبيعية أو الفن، كما يضم المباني المنفصلة أو المتصلة التي تعدّ من المناظر الطبيعية نظرا لطريقة هندستها أو موقعها حيث تشكل قيمة حضارية عالمية. ¹³

التراث الأدبي

يعد من المميزات الخاصة للتراث المادي، حيث تظهر العديد من التشعبات في التراث، نذكر منها التراث غير المادي، يدخل في سياقها الرقص والأغاني، وترقيص الأطفال وحتى التراث الثقافي حيث يندرج في إطارها كل تراث الثقافات من أغاني وأشعار وقصص وأساطير وملاحم وغيرها، إلا أنها تثبت حقيقة واحدة تتمثل في أن التراث ليس أدبا قديما وليس مؤلفات الأجداد فحسب، لكن التراث مدسوس في ثقافة الشعب بوصفه كلا متكاملًا، كما أن الجزء الأوفر من التراث متضمن في الحياة الشعبية، على أن لها ثقافة مميزة هي الثقافة الشعبية تميزها لها عن الثقافة الرسمية الموضوعية (المكتوبة) على شاكلة القصص القصيرة والروايات التي وضعها الأدباء المحدثون.¹⁴

التراث التاريخي

تم في العديد من القراءات، والأبحاث المتعلقة بالتراث الإشارة إلى هذا النوع من التراث، فهو " يرتبط بالأماكن التي تعرضت للاحتلال من طرف الآخر، فضلا عن المواقع الأثرية، ومواقع الاستيطان البشري."¹⁵

التراث الحضاري

يضم التراث الحضاري بوصفه صنفا من صنوف التراث "مخلفات الأسلاف كالتراث الحضاري القديم على شاكلة الآثار على اختلاف أشكالها، كما يشمل التراث الفرعوني والبابلي والسومري والآشوري مسكوكات وجرار وأوان ورسوم، نطقت عليه تسمية الآثار القديمة."¹⁶

التراث القومي

يشمل هذا النوع من التراث الفترة الزمنية التي ظهرت فيها القوميات، على مختلف أشكالها وأخذت لها نظام، وبناء عليها انفصلت الأمم والقوميات بتراثها وعلمائها من مفكرين وشعراء ومغنين وأطباء، لذلك فقد ظهرت " القوميات على شاكلة القومية الرومانية والفارسية والاعريقية والعربية، واتخذت لها أشكال القومية المستقلة لغة وأرضا وشعبا."¹⁷ لذلك بني التاريخ الحديث لكل أمة اطلاقا من مضمون كل قومية.

2.4. مصادر التراث

تعد المصادر التي تركها الباحثون القدماء كأهم مجال لدراسة التراث، وفي الآن ذاته تعد الكتب التي توصل اليها الرحالة العرب والأجانب والمستشرقين فضلا عن الوثائق والمخطوطات كلها تعطي صورة متكاملة لمختلف جوانب الحياة التي اندثر ت، لكن الحياة اليومية للبشر لا يمكن تغافلها، حيث انتقلت للثقافة المعاصرة كل تجارب المجتمعات السابقة، فضلا عن ذلك يعتبر بعض الباحثين أن التراث هو ظاهرة ثقافية توقفت عن التطور، كانت في وقت ما مرتبطة بمرحلة تاريخية معينة.¹⁸

إن الدارسين للتراث يحرصون اهتمامهم إذا تعلق الأمر بمصادر التراث في المصادر المكتوبة، في العالم العربي تحديدا، وفي السياق ذاته علينا أن لا نغفل دور العلماء العرب أمثال الجاحظ الذي كتب عن حياة العامة في عصره وعن المكدين والشحاذين والصعاليك عام (775م/ 868م)

وكتاب البخلاء بوصفه شاهدا على ذلك، فضلا عن عبدالله بن المقفع (142هـ/759م) بإسهامه بكتاب كليله ودمنة، ثم كتاب الأغاني لأبي الفرج الاصفهاني (897م/967م)، ودون أن نتجاهل كتب الفارابي التي منها كتابه الموسيقي الكبير (339هـ/950م) وانتهاء بابن خلدون بمقدمته الشهيرة.¹⁹

5. مفهوم الهوية في التصور السوسيو-انثروبولوجي

إن الهوية مفهوم ظهر أولا في أوروبا بصيغة دينية، ثم بعد ذلك عرف في القرنين التاسع عشر والعشرين معبرا عن "السلالة، اللغة والثقافة"، والهوية من المفاهيم التي شهدت اختلافا ابيستيمولوجيا، وعليه فقد طرحت العديد من التعاريف التي اجتمعت في فكرة واحدة هي إحساس الفرد أو الجماعة بالذات، في هذا الاطار يكشف ميلر Miller "أن الهوية هي نمط من الصفات الممكن ملاحظتها أو استنتاجها، والتي تُظهر الشخص وتعرفه وتحده لنفسه وللآخرين،... وهو يصنف الهوية الى صنفين، الهوية الذاتية التي تشير الى الشخص كما يتصوره الآخرون، ثم الهوية الموضوعية العامة التي تشير الى الشخص كما يراه الآخرون."²⁰

فضلا عن ذلك فالهوية من منظور آخر هي "منظومة متكاملة من المعطيات النفسية والمادية والمعنوية والاجتماعية، تنطوي على نسق المعلومات أو العمليات المعرفية، أو التكامل المعرفي، وتتميز بوحدها التي تتجسد في الروح الداخلية التي تتمثل في وحدة العناصر المادية والنفسية المتكاملة التي تجعل الشخص يتميز عن الآخرين ويشعر بوحده الذاتية."²¹

تجدر الإشارة في المقام الأول، أن تعريف الهوية يرتبط بتوجهات الباحثين من نفسية واجتماعية وسياسية... الخ، فمن حيث التصور السوسيبولوجي، الهوية يمكن النظر إليها في الوهلة الأولى باعتبارها فعل اجتماعي، ثم ثانيا فهي ممارسة، وبالتالي فإن هذا الوصف يفضح الكيفية التي تنشأ وتستمر بما مسألة الهوية، في هذا الاطار يشير السوسيبولوجي الفرنسي جون كلود كوفمان Jean-Claude Kaufmann أن "تكوّن الهوية الاجتماعية يتم عن طريق أدوار نلعبها في المشهد الاجتماعي."²²

أنثروبولوجيا، ينهض التماس الساهلوياتي لأي مجتمع بناء على حجم العلاقات القائمة بين الجماعة وولائها للمبادئ التي ساهمت في تقريب الأفراد والجماعات، يوضح فريديريك بارث Frederik. Barth أن "الهوية هي ذلك النظام الذي يتكون من نسيج الوضعية العلائقية بل هو من تجلياتها."²³ فالهوية هي مركز أي جماعة اجتماعية كانت، فهي تعكس خصوصياتها وانتماءاتها المختلفة، لذلك يضيف بارث أن الهوية "ظاهرة مركزية في نظام العلاقات بين الجماعات، تستخدم خارجها لأغراض التصنيف وتنظيم التبادلات في كل مجالات الحياة."²⁴

نشير ضمن هذا السياق، أن الهوية هي معطى تضافري، فهي ذات تكوين بنيوي متشعب، يحضر فيها التوافق والانسجام في حالات محددة على شاكلة الانتماء إلى قبيلة واحدة، أو التمايز الذي يعبر عنه التكوين السوسي-سياسي والثقافي وحتى الاقتصادي لأية جماعة تاريخية كانت، يشير بارث في دراسته "الحدود بين الجماعات الإثنية" إلى أن "التمايز بين الهويات الثقافية خاصة يرجع إلى نوعية العلاقات بين الجماعات والطريقة التي يبرز بها الاختلاف ضمن تلك العلاقات، وبالتالي فإن الهوية ليست معطى أولي ونهائي بل إنها في حالة بناء دائم ينبغي دراستها من خلال الوضعية العلائقية."²⁵

ويعني ذلك أنه لا وجود لهوية ثابتة وإنما تظل سيرورة البناء الهوياتي متواصلة ولا متناهية بتواصل علاقات الفرد بالآخرين من الجماعة الاجتماعية

التي ينتمي إليها، وتواصل علاقات الجماعة ذاتها بالجماعات الاجتماعية الأخرى. وعلى هذا الأساس يتصور أمسال Jean-Loup Amselle أن " البناء الهوياتي، وبالأخص عند القبيلة، هو سيرورة تتأسس من مميزات على أساس اللغة والعلاقة بالفضاء والتقاليد والاسم والنسب الواحد والوعي بالانتماء المشترك، بما يسند للشعور بالانتماء مهمة وضع أساس البناء الهوياتي."²⁶

ضمن الاطار ذاته، يكشف كلود ليفي ستراوس Lévi-Strauss بأن الهوية "هي نوع من المكان الافتراضي الذي لا غنى لنا عنه، فهو بمثابة نقطة مرجعية لنا، ولشرح الأمور التي ليس لها في الواقع وجود حقيقي."²⁷ تأسيسا على ذلك نكتشف أن الهوية بناء رمزي يأسسه العقل قبل أي شيء آخر.

6. نظرة حول التراث في المجتمع الجزائري

لقد أقر المؤتمر العام لليونسكو في الدورة السابعة عشرة بباريس في 16 من نوفمبر 1972م الاتفاقية التي تتعلق بحماية التراث الثقافي والطبيعي العالمي، حيث تسعى هذه الاتفاقية الى المحافظة على الإنسانية والأجيال الآتية على الشهادات الطبيعية والثقافية التي تحمل قيمة عالمية، في هذا السياق "صادقت الجزائر على هذه الاتفاقية وانتخبت عضوا في لجنة التراث العالمي في تاريخ السابع من نوفمبر سنة 2011م."²⁸

من حيث الثقافة والإرث الحضاري، فقد شهدت الجزائر الحضارة قديما في مختلف أزمنة الحضارة الإنسانية، حيث عثر على بقايا وآثار نشاط إنساني تعود إلى ما يقارب 7000 عام قبل الميلاد، كما احتكت بعدة حضارات عرفها التاريخ منها الحضارة الفينيقية، "نم شهدت الجزائر في القرن السابع قبل الميلاد الحكم القرطاجي المحلي الذي انبثق من الرحالة الفينيقيين، وصولا الى الرومان سنة 42 قبل الميلاد وعام 682م."²⁹

إلى أن حلت العصور الإسلامية المتوالية، بين الفاطميين وبنو عبد الواد والحفصيين، وفي سنة 1518م خضعت لحكم الخلافة العثمانية، وصولا إلى الاستعمار الفرنسي في العصر الحديث عام 1830م، ثم توالى مقاومة الجزائريين إلى غاية اندلاع ثورة الجزائر في الأول من نوفمبر 1954م، واحراز الاستقلال سنة 1962م، وقد انضمت الجزائر في نفس السنة الى جامعة الدول العربية ومنظمة الأمم المتحدة. "وعلى العموم يمكن القول أن الحضارة في الجزائر توصف على أنها متداخلة مع دول المغرب العربي المجاورة، حيث تأثرت ثقافة المجتمع الجزائري على مر العصور بعوامل متعددة نذكر منها:³⁰

- الجوار، حيث تأثرت الثقافة بالحضارات المجاورة.
- التراث الإبراهيمي ونقصد الإسلام.
- إفريقيا والعالم العربي والأندلس، اليهودية المغاربية والأندلسية
- الانفتاح على العالم وثورة الاتصالات.
- الاستعمار الفرنسي.

تجدر الإشارة أن هذه العوامل ساهمت في إيجاد مواضيع ثقافية ذات صبغة تراثية عالمية للجزائر، سواء فيما تعلق بالتراث المادي أو غير المادي

7. مكانة التراث الملبسي في ترسيخ الهوية

يشكل التراث الملبسي عنصرا من عناصر التراث الثقافي في شقه اللامادي، فالتراث اللامادي بشكل عام يضم أغلب المهارات والتصورات والممارسات والوسائل التي ترتبط بها من آلات او مصنوعات او فضاءات ثقافية، فضلا عن ذلك يشكل التراث الملبسي عنصرا ذو أهمية من التراث اللامادي.

إن الأزياء التراثية كغيرها من عناصر التراث الثقافي الأخرى، فهي نتاج لمجتمعات خلت تناقلتها الأجيال، فالأزياء التراثية ليست مجرد قطع ملونة من اللباس فحسب، فهي تروي تقاليد وعادات وأعراف أغلب المجتمعات الإنسانية، إضافة الى أن كل نوع من اللباس متلائم مع بيئة خاصة حمالة لخصوصيات خلافية اذا تعلق الأمر بأنماط اللباس الأخرى، لذلك نجد على سبيل الذكر لباس الملك يختلف عن لباس حاشيته ولباس سيدة الريف بسيط في حين يكون لباس سيدة المدينة مطرزا، وعليه ومن ارتباط الأزياء بتفاصيل الحياة اليومية جاءت أهمية التراث الملبسي.

إن حالة السكون التي يخضع لها التراث بشكل عام ومنه التراث الملبسي تتمخض عنها حالة القطيعة مع عناصره المختلفة، وعليه فإن الحفاظ على التراث يتم في الأساس الأول من خلال تداوله وتناقله أو تدوينه، حيث يحيل ذلك الى توريثه للأجيال الآتية، وبالتالي يمثل ذلك فعلا استراتيجياً يفضي إلى تقوية روابط وصلات الأجيال الحاضرة مع تراث الأجداد بوصفه شاهدا على معمار اجتماعي معين داخل مرحلة زمنية بعينها، حتى إذا تم ذلك فسيساهم في استعمال وتداول العناصر الهويةية للمجتمع على اختلاف أشكالها، على اعتبار أن التراث يشكل شطرا شاسعا من هوية المجتمع.

كما تظهر قيمة الحفاظ على التراث فيما يترتب عن ذلك من نتائج خلافية منها على سبيل الذكر في المقام الأول أن "الحفاظ على التراث يحيل الى المعرفة الشاملة والدقيقة بالتراث الوطني وأن المعرفة بالتراث تعد حافزا للاهتمام بما يتضمّن التراث في حد ذاته من مكونات مادية ولا مادية لينتج عن كل ذلك ترسيخ الهوية الوطنية محليا أو دوليا".³¹

وفي المقام الثاني، تظهر أهمية الحفاظ على التراث من خلال "توظيفه اقتصاديا في سياق السياحة التراثية".³² حيث تحضى هذه الأخيرة باهتمام عدة دول، لذلك وفي سياق السياحة التراثية التي تتعلق بالعمائر والأطلال التاريخية والأمصار القديمة يتم تثبيت عينة من عناصر الهوية الوطنية للدولة في المخيال الدولي أكثر منه وطنيا. فضلا عن ذلك، يشكل الحفاظ على التراث ممرا لنقل وتداول العادات والقيم والتقاليد من جيل إلى آخر، وبالتالي فإنه يجسد دورا وظيفيا بارزا في ترسيخ المكونات الهويةية للمجتمع في بعدها التاريخي والثقافي والديني والحضاري وعليه فهو يساهم في الآن ذاته في حفظ الثروة القومية التي تشكلت بفعل تراكم تاريخي، من هذا المنطلق يمثل التراث الذاكرة التاريخية للمجتمع والدولة على حد سواء.

تتضاعف أهمية الحفاظ على التراث اذا نظرنا صوب طبيعة المرحلة الحالية وما يرتبط بها من تمادي لظاهرة العولمة التي تطرح العديد من التحديات إذا تعلق الأمر بالثقافات المحلية، حيث "تشكل العولمة الدولية تهديدا مباشرا للهوية الوطنية، لذلك فإن الحفاظ على التراث من شأنه ترسيخ الثقافات المحلية كضمانة لصون الهوية القومية للدولة".³³

إن اعتبار الهوية كنسق ستاتيكي وخالي من الحركة ينهض على مخاطرة جسيمة، وعليه تطرح ضرورة النظر إلى الهوية على أنها نسق ديناميكي، لذلك فإن حركة التراث تضمن ديناميكية الهوية، هذه الأخيرة كما يصفها لويس جاك دوري Louis Jacques Dorais -على أنها "ليست ثابتة، ولكنها تتصف بديناميكية تبرز عندما تستخدم".³⁴

في سياق الحديث عن مكانة التراثي ترسيخ الهوية، تجدر الإشارة إلى أن التراث يعد عنصرا تتشاركه العديد من الجماعات ذات التركيب البنوي المتجانس، لذلك فإن أي جماعة عندما تتشارك فيه فهي تتداول في الآن ذاته عناصر معينة من الهوية، الأمر الذي أشار إليه جاك دوري حيث شبه "الهوية بالسيورة التي تتشارك فيها مجموعة من الأفراد في طريقة معينة وموحدة لفهم الكون، والأفكار وأشكال السلوك، وهم في ذات الوقت واعون باختلافهم مع مجموعة أفراد أخرى".³⁵ كما ينظر لها على اعتبارها "عملية ديناميكية، بفضلها تتشارك مجموعات من الأفراد في الكثير من الصفات لفهم العالم، ويؤثرون في محيطهم وينشرون أنماط تصرفهم إزاء أفراد آخرين في مجموعات أخرى، ويفكرون بصفة مختلفة، ويتصرفون بطريقة مختلفة عن صفاتهم".³⁶

في ظل السعي نحو اكتشاف علاقة التراث بالهوية، نثري ذلك بتصور طه عبد الرحمن، هذا الأخير يرى أن "التراث هو جملة المضامين والوسائل الخطائية والسلوكية التي تحدد الوجود الإنتاجي للمسلم العربي في أخذه بمجموعة مخصوصة من القيم القومية والإنسانية، حية كانت أم ميتة، والتراث عنده يشتمل على القرآن والسنة، واجتهادات المسلمين، وهذه العناصر الثلاث للتراث تشكل مجتمعة هوية الفرد العربي، فلا هوية بلا تراث، فهي تنمو في ظل التراث وتتطور بناءً عليه".³⁷

تأسيسا على ذلك تظهر مكانة التراث في شقه الملبسي ودوره الوظيفي في تفعيل عناصر الهوية وترسيخها وتداولها وتناقلها بين الأفراد والجماعات، وتعزيزا لذلك يضيف طه عبد الرحمن بقوله "إن التراث هو أهم عامل محدد للهوية فإذا أراد الانسان العربي أن يتعرف على ذاته فيجب عليه العودة إلى تراثه".³⁸

خاتمة

يعد اللباس عبر مختلف الأزمنة وعاء يضم عادات الشعوب وتقاليدها، لذلك فإن الأزياء هي أهم وسيلة يتم من خلالها لكشف عن تراث الشعوب والمجتمعات عبر مختلف الأزمنة والفترات، في هذا السياق كتب عالم الاجتماع جورج سيميل فيما يتعلق باللباس على العموم، أن للموضة هدفان، يتمثل الأول في التعبير عن الذات بشكل فردي من خلال الملابس، ثم ثانيا الرغبة في الانتماء إلى مجموعة معينة، هذا ما يجعل للباس بعدا رمزيا خاصا، يوجه الفرد نحو استهلاك هوياتي محدد، وعليه فإن هذا ما يجعل للتراث في شقه الملبسي علاقة وثيقة بالهوية الوطنية لأي مجتمع.

من جهة أخرى، إن مسألة التراث تنفرد باهتمام متزايد، ذلك نظرا لأنه بمثابة حاضنة للهوية الوطنية، فهو فضلا عن ذلك يشكل ذاكرة المجتمع والدولة، فهو بناءً على القراءات المتاحة يضم قسمين رئيسيين، القسم الأول من التراث يتعلق بالجانب المادي، نقصد هنا التراث المادي من آثار ومعالم تاريخية تجسد تطور المجتمع والمراحل التي مرّ بها على شاکلة العمارة كالأبنية التاريخية التي بقيت شاهدة على مرحلة ماضية من عمر المجتمع والدولة، فضلا عن الحرف اليدوية والأزياء الشعبية التي يمثلها اللباس بأغلب صنوفه ونماذجه.

ثم القسم الثاني للتراث، الذي يتمثل في التراث اللامادي، يقصد به ما توارثته الجماعة من قيم وعادات وتقاليد، وعليه تجدر الإشارة أن التراث يجسد دورا وظيفيا ملفت للانتباه في ترسيخ وتحديد معالم الهوية للمجتمع سواء على المستوى الداخلي الذي يتعلق بالأفراد والجماعات والمخيل الاجتماعي بشكل عام، أو على المستوى الخارجي الذي نقصد به المكانة التي تحزها الدولة في المخيل الدولي انطلاقا من تراثها.

وفق منظور مكنتظ بالاختصار فإن التراث يمكن أن يكون حدثاً تاريخياً، أو إبداعاً في مجال الأدب أو لوحة فنية أو اختراعاً علمياً أو نحتاً أو بناءً معمارياً أو أمثالا شعبية أو تقليداً معيناً، وهذه الآثار تشكل بتضافرها هوية المجتمعات وتمييزها عن غيرها.

يرتبط التراث الملبسي بالهوية من خلال ما يمنحه التراث الملبسي في حد ذاته من إمكانية ترسيخ الهوية بناء على العديد من المداخل، ومنها أن التراث الملبسي يعد حاضنة لصنوف فنية خلافية، تتعلق بالهوية الوطنية في حد ذاتها، نذكر منها على سبيل الذكر اللباس القبائلي وما ينهض عليه من رمزية هوياتية خاصة أو البلوزة التلمسانية أو الشدة الوهرانية... الخ، ومن جهة أخرى فإن التراث الملبسي يساهم في ترسيخ الهوية الوطنية من خلال ما يمنحه من فرص السياحة التراثية، حيث تخصص مساحات خاصة لعرض الأزياء التقليدية في محافل وطنية أو دولية على حد سواء، فضلا عن ذلك فإن التراث الملبسي حمال لأشكال ثقافية خاصة، ذلك من حيث أن لكل منطقة من مناطق المجتمع الجزائري تركيب ثقافي خاص يعد اللباس نتاجا له، وعليه فإن التراث الملبسي يساهم بشكل كبير في ترسيخ أشكال ثقافية معينة هي في الأصل امتداد لتكيب هوياتية خاصة.

المراجع والمصادر

- 1- ما هو التراث الثقافي غير المادي؟ تعريف التراث الشفهي اللامادي للإنسانية حسب اليونسكو من الموقع الرسمي نسخة محفوظة 11 سبتمبر 2015 على موقع واي باك مشين.
- 2- التهاوتي، محمد علي، (1961)، موسوعة الكشاف، اصطلاحات الفنون والعلوم، بيروت، مكتبة لبنان، ص 234.
- 3- المرجع نفسه، ص 234.
- 4- شوقي، جلال، (2015)، التراث والتاريخ، القاهرة، آفاق للنشر والتوزيع، ص 3.
- 5- حرب، علي، (2018)، من حفظ التراث الى حفظ الأرض، وقائع الملتقى العربي الأول للتراث العربي، الشارقة، نشر المكتب الإقليمي لحفظ التراث الثقافي في الوطن العربي، (ايكروم)، ص 15-19.
- 6- ما هو التراث الثقافي غير المادي؟... المرجع السابق نفسه، ص 15-19.
- 7- المرجع نفسه، ص 15-19.
- 8- المرجع نفسه، ص 15-19.
- 9- المرجع نفسه، ص 15-19.
- 10- المرجع نفسه، ص 15-19.
- 11- المرجع نفسه، ص 15-19.
- 12- المرجع نفسه، ص 15-19.

- 13- المرجع نفسه، ص 15-19.
- 14- التهاوتي، محمد علي، المرجع السابق نفسه، ص 234.
- 15- المرجع نفسه، ص 234.
- 16- المرجع نفسه، ص 234.
- 17- المرجع نفسه، ص 234.
- 18- الخولي، يحيى طريق، (2000)، فلسفة العلم في القرن العشرين، دار المعرفة، سلسلة عالم المعرفة، ص 22.
- 19- المرجع نفسه، ص 23.
- 20- تعوينات، علي، الذات والهوية في سيكولوجية الشخصية، مقال منشور على الموقع الإلكتروني: -
soi/etudes/com.educapsy://httpidentité-personnalité-102 .
- 21- مجمع اللغة العربية، (2022)، المعجم الوجيز، القاهرة، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ص 85.
- 22- Kaufman, Jean Claude, (2004), L'invention de soi, Une théorie de l'identité, Paris - France: Armand Collin Editions, P.39.
- 23- ولد خليفة، العربي، (2007)، المسألة الثقافية وقضايا اللسان والهوية في الجزائر، الجزائر، منشورات ثالة، ص 112.
- 24- المرجع نفسه، ص 112.
- 25- المرجع نفسه، ص 112.
- 26- Vinssonneau, Genevieve, (2002) .L'identité culturelle, Paris -France, Armand CollinEditions, p.11
- 27- Strauss, Levi, (1987), L'identité, Paris- France, P.U.F Editions , P. 332.
- 28- شاكرا، مصطفى، (1986)، مجلة الفن المعاصر، الوحدة في الفن الإسلامي، عدد 03، ص 106.
- 29- المرجع نفسه، ص 106.
- 30- المرجع نفسه، ص 106.
- 31- بايار، جان فرانسوا، (1998)، أوهام الهوية، ترجمة: حليم طوسون، بيروت، دار العالم الثالث، ص 8
- 32- المرجع نفسه، ص 8
- 33- المرجع نفسه، ص 8.
- 34- Dorais, J.L, (2004) , La construction de l'identité, Laval- Canada, Presse de l'université de Laval, p.11.

35 - Dorais, J.L , (2001) ,Inuit identities, Laval- Canada, Presse de l'université de Laval, p.17.

36 - idem, p.17.

37 - مجلة الدراسات والبحوث الاجتماعية، (2021)، مجلد 9، عدد 2، ص 161.
38 - المرجع نفسه، ص 162.